القدس

ملامح جيل يتشكل

محمد عدنان سالم

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

المحتوى

مقدمة
٥
القدس؛ ملامح جيل يتشكل!!
٨
الأمة الفاعلة
١٨
المقاومة؛ المنعطف الكبير
٢٣
مشروع الشرق الأوسط الكبير
٣٨
محرقة غزة.. بداية تاريخ
٥٩
التواطؤ الدولي على مجازر غزة
٦٣

مقدمة

يضمُّ هذا الكتاب عدداً من المقالات المتعلقة بالقضية الفلسطينية، قدّمها المؤلف تباعاً بين أعوام ٢٠٠٤ و٢٠٠٩ وفي مناسبات شتى ألقيت فيها خلال لقاءات ومؤتمرات عديدة.. وهي تنساق في إطار واحد يجمعها، هو إطار القضية الفلسطينية في ظروفها الراهنة ومستجدات الأعوام المذكورة.. لتتكامل في رؤية ذات أبعاد تتناولها على ضوء التطورات الأخيرة المتسارعة على الساحة العربية والدولية؛ منذ مشروع الشرق الأوسط الكبير لإدماج إسرائيل ضمن منظومة دول المنطقة، فمروراً بأحداث العدوان الإسرائيلي على جنوب لبنان في تموز من عام ٢٠٠٦ وتصدي المقاومة اللبنانية له، وانتهاء بالمحرقة التي جرت على أرض غزة هاشم ما بين ٢٠٠٨/١٢/٢٧ و٢٠٠٩/١/١٧ فاستنزفت المجزرة الإسرائيلية مزيداً من الدم الفلسطيني؛ قتلاً وتجريحاً بالآلاف، وأسقطت منازل فوق رؤوس أصحابها، وأحدثت دماراً هائلاً.. ومع هذا فقد قاومت البطولة الفلسطينية العدوان الشرس بما تستطيع خلال أيام مرعبة؛ زادها قوة وصلابة وخبرة.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

هذه الأحداث الكبيرة المتتالية فتحت الذهنية العربية على حقائق جديدة ظهرت على الساحة، قدمت للمفكرين الجادين منعطفات هامة في القضية الفلسطينية خصوصاً والعربية عموماً وفي علاقة الشرق والغرب، ورسمت خطوطاً بيانية مختلفة عن المرسوم السابق.

وهذه المقالات ربما تلخص المعطيات الجديدة بروح من الفكر المتعمق الذي يستنبط استنتاجات دقيقة قائمة على التحليل، ويستشرف مستقبلاً واعداً بناء على الواقع الراهن من خلال معايشة هذه الأحداث في السنوات المشار إليها.

من هذه الاستنتاجات:

١- رسوخ ثقافة المقاومة المنبثقة من ضمائر الشعوب وحرية اختيارها وحركتها؛ بمعزل عن ضرورات الأنظمة، وجيوشها النظامية وارتباطاتها الدولية.

٢- تمرس المقاومة، وتطورها ونموها؛ مستفيدة من تجارب حركات التحرر العالمية، وتجاربها الخاصة، ومرتكزة على الشباب وما يتمتع به من روح الإقدام والتضحية.

٣- الانعطاف التاريخي الملحوظ- منذ جنين وحرب جنوب لبنان وصمود غزة- من حالة العشوائية وردود الأفعال الآنية المفككة، إلى حالة التخطيط والمبادرة والفعالية؛ انعطافاً لا يزال في بداياته، يؤمل منه أن يبلغ مستوى التخطيط الاستراتيجي بعيد المدى.

وأخيراً فلئن كان في المقالات بعض أفكار مكررة في جزئياتها، فذلك بسبب ما اقتضاه سياق الكلام وبُعْد الزمان بين مناسبة وأخرى ألزمت المؤلف التأكيد على ما يريد.

القدس؛

ملامح جيل يتشكل[(٨)]!!

عشية يوم جمعة من صيف عام ١٩٦٦، اقترح أحد الأصدقاء، وكنا ثلةً نسمُر، أن نصلي الجمعة في المسجد الأقصى، فما هي إلا دقائق حتى عقدنا العزم على أن ننطلق فجراً..

ثلاث مئة كيل كانت تفصل القدس عن دمشق؛ قطعناها أثلاثاً؛ مئة إلى درعا، فمئة إلى عمان، فمئة ثالثة أوصلتنا إلى باحة الأقصى؛ لم تستغرق رحلتنا أكثر من أربع ساعات، متضمنة إجراءات الحدود.. لم تكن الحدود قد أدركتها التعقيدات والهواجس الأمنية بعد، وكان النسيجُ العربي الواحد، ما يزال السمةَ البارزة التي تطبع التصرفات كلها؛ لا فرق فيها بين رسميٍّ وأهليٍّ، ولا بين شعبي وحكوميٍّ، ولا بين سوري ولبناني وأردني..

وفي باحة الأقصى، بين المسجد وقبة الصخرة، تحلق السوريون جماعات، يتناولون فطورهم ويحتسون شايهم، بينما كانت مجموعات من اللبنانيين تقوم بأداء الدبكة على وقع (الدربكات).. يقضون سويعات الضحى بانتظار أذان الظهر وصلاة الجمعة.. كل شيءٍ حولنا كان عربياً لا أثر فيه ليهود..

وتساءلت: ترى لو تاقت نفس ولدي وأصدقائه إلى شد الرحال إلى الأقصى؛ أولى القبلتين وثاني المساجد التي لا تشد الرحال لغيرها، فمتى يمكن أن تتحقق أمنيتهم؟!

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

فكرة قفزت إلى ذاكرتي، وأنا أشاهد على التلفاز أهلنا في حي البستان في القدس؛ يطردون من بيوتهم لتتولى الجرافات هدمها، ضمن مسلسل إجراءات تهويد القدس، وتغيير النسيج السكاني والديموغرافي فيها.. يجري ذلك على مرأى ومسمع من العالم العربي والإسلامي والدولي كله.. تنبري له أصوات استنكار خافتة خجول؛ لا تردُّ أسرةً مطرودة من مسكنها إلى العراء، ولا توقف جرافةً عن هدمها، وتمضي إسرائيل في قضم القدس حياً بعد آخر، وسط عجز عربي وإسلامي مُخز، وصمت دولي مبارِك ومشجِّع.. تحاصر الأقصى على سطح الأرض؛ ولا تتورع عن إضرام النار فيه، ثم تحفر تحته؛ تروم هدمه وإزالة معالمه لبناء الهيكل على أنقاضه، وفي الطريق إلى تحقيق مأربها ما فتئت تصعِّد القيود على المصلين، تختلق لها مختلف الذرائع.

فكرة أخرى قفزت إلى ذهني استدعاءً من التاريخ؛ رأيت الخليفة عمر فيها بعدما أعطى العهدة العمرية لأهل القدس، وقد حضرته الصلاة، ينظف أرضاً للقمامة ليصلي فيها، يرفض أن يصلي في الكنيسة؛ مخافة أن يُتخذ ذلك ذريعة لتحويل الكنيسة إلى مسجد.

ثم تداعت الخاطرات والتساؤلات..

١- هل ستظل القدس ميدان الصراع الأبدي بين حضارة القيم وحضارة المصالح والتعصب الديني؟!

لقد كان عمر- يوم دخل القدس؛ محرراً لها من تسلط المحتلين الرومان- يمثل حضارة في عنفوان شبابها ومدها الصاعد، وكانت جيوشه تجوب الآفاق نحو الشرق والغرب؛ وكان بإمكانه أن يجوس خلال الديار كما يفعل الفاتحون؛ ما الذي دفعه ليحترم كنائسهم وصلبانهم وعقائدهم؟ وهل كان يُدرك أنه بوثيقة الصلح (العهدة العمرية) إنما يرسي نظاماً أبدياً؛ نموذجه القدس، تتعايش فيه الأديان، ويعيش فيه الغالب مع المغلوب جنباً إلى جنب، في ظل نظام تعددي يحترم الآخر المختلف ويتساوى فيه الجميع أمام القانون، وتسود فيه العدالة والأخوة الإنسانية، فلا يتفاضل الناس فيه إلا بالتقوى والعمل الصالح؟!

لم تَسْلم القدس لنهج عمر المتسامح، فقد كانت هدفاً لحملات أطلق المؤرخون الغربيون عليها عنوان الحروب الصليبية، وأطلق مؤرخونا العرب المسلمون عليها اسم حروب الفرنجة كراهية منهم لإقحام البعد الديني في هوية الصراع، ورداً له إلى أبعاده الاستعمارية الاستغلالية الغربية الحاقدة.. استمرت حروب الفرنجة سجالاً قرابة مئتي عامٍ، إلى أن استأصل جيل صلاح الدين شأفتها، وردها على أعقابها، ضارباً أروع الـمُثل التي تنطوي عليها حضارته؛ حضارة القيم؛ «.. وبعد أن فتح الله عليه بالنصر والظفر، جلس السلطان صلاح الدين الأيوبي، في دهليز الخيمة، فإنها لم تكن قد نصبت، والناس يتقربون إليه بالأسرى، ثم استحضر الملك جفري وأخاه والبرنس أرناط، وناول الملك شربةً من جلاّب بثلج، فشرب منها، وكان على أشد حال من العطش، وكان من جميل عادة العرب وكريم أخلاقهم أن الأسير إذا أكل أو شرب من مال من أسره صار آمناً، فقصد السلطان بذلك الجري على مكارم الأخلاق»[(٩)].

٢- هل العدوان الصهيوني الجديد على فلسطين، المدعوم كلياً من الغرب إلا صورة جديدة من حروب الفرنجة (الصليبيين)؟!

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

بل هو الأعتى والأكثر وحشية وخبثاً ودهاءً، فلئن لم يدخل الغرب المعركة بجيوشه وحملاته الصريحة، لقد أوكل بها عصاباتٍ من الصهاينة، يسَّر لهم التسلل إليها لواذاً، وأزجى وعوده لهم منذ بلفور، واختلق لهم الذرائع المضلِّلة تحت وهم أرض الميعاد، وزوّدهم بكل أدوات القتل والتدمير، وأطلق أيديهم في ارتكاب أبشع جرائم الإبادة الجماعية والمذابح الوحشية، بدءاً بدير ياسين وكفر قاسم، ليحمل أهلها على هجر بيوتهم فراراً بأطفالهم ونسائهم من الذبح؛ فيتحول أهل الأرض إلى لاجئين في المخيمات، ويتحول شذاذ الآفاق وعصابات الإجرام إلى أصحاب حق أطلقوا عليه عنوان (حق إسرائيل في الوجود)، وراحوا يروِّجون له ويرددونه حتى انطلقت به ألسنةٌ من بني جلدتنا. ولعمري إنها لأكبر أكذوبة في التاريخ؛ لصٌّ يسطو على منزل؛ يقتل من أهله من يقتل ويطرد من يطرد، ثم يذهب إلى محكمة الشيطان مصطحباً معه من شهود الزور من يشهد له بأنه واضع اليد على المنزل، ويطلب منحه شهادة الملكية استناداً إلى وضع اليد الغاصبة.. الشيطان ذاته يعرف يقيناً بطلان الدعوى، فهل يقتنع المالك المطرود بصحتها إلا أن يكون مغفلاً معتوهاً أو صنيعة للشيطان؟!

عجائز اللاجئين مازلن يحتفظن بمفاتيح بيوتهن ينتظرن أجيال نور الدين وصلاح الدين يعيدونهن إليها!!

٣- فأين هو جيل صلاح الدين؟!

إنه جيل يتشكل الآن بأسرع مما نتصور، بدأت طلائعه في جنين ٢٠٠٢، ولقّن إسرائيل دروساً في أطول مواجهة ما تزال تعيش هول صدمتها منذ ٢٠٠٦ في جنوب لبنان، وها هو ذا يصمد في غزة صموداً أسطورياً، لم تكن تتوقعه بعد كل ما أعدت له من حصار وتجويع.

إن إسرائيل تدرك تماماً أنها لا تحتمل أكثر من هزيمة واحدة كما بشرها بذلك زعيمها بن غوريون، وأن هزيمتها الأولى ستكون بداية السقوط، وأن جذورها بقيت طافية على السطح لم تستطع أن تتغلغل إلى الأعماق، وأن غرسها في الأرض العربية نشاز؛ لن يلبث الجسد العربي أن يطرده، كما يطرد الجسد كل جسم غريب؛ فهي لذلك تروم فرض نفسها باستخدام القوة المفرطة، والإبادة الجماعية، واستهداف النساء والأطفال، واستبدال الهوية الشرق أوسطية بالهوية العربية الإسلامية، بكل وسائل الضغط والتآمر.. وهيهات!!

٤- ولكن أين المجتمع المتماسك الذي دعم صلاح الدين؟!

إنه مجتمع أراه رأي العين يتشكل، يحاول أن ينتقل من حالة العشوائية التي واجه بها الغزو الصهيوني والاستيطاني، إلى حالة التخطيط بعيد المدى للتخلص من آثاره واسترداد الحقوق المستلبة.. ومن حالة الانفعال وردود الأفعال الآنية، إلى حالة الفعل والمبادرة.. ومن حالة التواكل والانسحاب وإلقاء الأعباء كلها على عاتق الدولة، إلى حالة المشاركة والفعالية والمسؤولية.. ومن حالة المطالبة بالحقوق ومدّ اليد لأخذها، إلى حالة أداء الواجبات وبسط الكف لإعطائها.. ومن التغني بأمجاد الماضي وما صنعه الآباء، إلى استشراف المستقبل وصُنْعه للأبناء.. ومن حالة الغثاء التي لا تَثْقُل في كِفة ميزان، إلى حالة الوزن التي تشكل رقماً مجدياً يظهر على شاشة الميزان.

بمثل هذا الوعي الاجتماعي الذي ظهرت ملامحه أيام غزة، لن تقف مجتمعاتنا العربية والإسلامية مكتوفة الأيدي أمام محاولات تهويد القدس التي لا تقل خطراً عن محرقة غزة..

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

لا بد أن ننتقل بخطابنا من التهامس الداخلي فيما بيننا إلى الصراخ بأعلى أصواتنا نحو الخارج، لنسمع أصواتنا إلى العالم..

لا بد أن نقنع العالم أننا أصحاب الحق في الوجود، وننسيه أكذوبة حق إسرائيل المعتدية في الوجود..

لابد أن نملأ دواوين المحاكم الدولية بمذكرات الادعاء على مرتكبي جرائم الحرب والإبادة الجماعية؛ مدعومة بالوثائق الدامغة والبراهين..

لا بد أن يخترق إعلامنا الحدود، ويعبر القارات، لإبطال التضليل الإعلامي الذي يمارسه عدونا الصهيوني..

لقد وضع عصر المعلومات في أيدي شبابنا أجدى وسائل الاتصال وأيسرها استخداماً وأقلها كلفة، فليتحرك شبابنا لإيضاح حقوقنا إلى كل شباب العالم.. فقد أصبح العالم كله قرية صغيرة، يتبادل سكانها المعلومات..

بهذا سيدعم شبابنا إخوانهم المقاومين في ساحات المواجهة، وبمثل هذا التحرك الفاعل في الداخل والخارج سوف تستعاد القدس..

الأمة الفاعلة [(١٠)]

تسود المجتمع العربي حالة من الكلالة والعجز والشعور بالإحباط، تشل فاعليته، ليقوم بدور المنفعل بالأحداث بدلاً من الفعل فيها، ولتقوده بدلاً من أن يقودها، وليصبح جُلَّ نشاطه العام ردودُ أفعال تثور فجأة، تلقاء أي وخزة مؤلمة، ثم لا تلبث أن تهدأ، نتيجة الاعتياد والتكرار.. يلفها الإلفُ والنسيان.

هكذا تعامل المجتمع العربي مع القضية الفلسطينية، وكل مصيبة كبرى ألمت به.. يتحرك فجأة إبان المصيبة، يحاول أن يأسو بعض الجراح، ويلملم بقايا بيته المهدم..

كيف حدث ذلك؟ وكيف جُرد المجتمع من فاعليته؟! وهل كان ذلك تلقائياً وعفوياً دونما تدبير؟! أم إن إخراج الإنسان العربي والمسلم من ساحة الفعل؛ كان ضرورة من ضرورات تمرير المشروع الصهيوني لاقتلاع شعب من أرضه وإحلال أشتات يهود مكانه!!

لقد عمدوا إلى تضخيم دور الدولة وتهميش دور المجتمع، تحت شعار الثورة وحرق المراحل لتحقيق تنمية سريعة شاملة.. تم ذلك تدريجاً، حتى نجح أخيراً في إقصاء المجتمع عن أي فعل باعتبار أن الدولة تكفلت له بتوفير كل احتياجاته، وأراحته من عناء كل تفكير وتدبير، وقالت له:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها

واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

فاستجاب لها وقعد ينتظر.. وتحول إلى متفرِّجٍ يقلب الشاشات حتى يملَّها..

هكذا ضاعت فلسطين، وضاع معها شرف الأمة، وتحول الإنسان العربي خصوصاً، والإنسان المسلم عموماً إلى رقم لا يجاوز الصفر، إن لم يكن تحته.. وهكذا أصبح كَلًّا على مولاه؛ أينما يوجهه لا يأتِ بخير، وهكذا أصبح – كما تنبأ له الرسول صلى الله عليه وسلم – كثير العدد لكنه غثاء كغثاء السيل.

هل من سبيل إلى:

- إعادة هذا الإنسان العربي والإنسان المسلم إلى نطاق الفاعلية؟!

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

- إشعاره بأنه يمكن أن يكون رقماً فوق الصفر. وأنه بانضمامه إلى أرقام إخوانه سيشكلون رقماً متصاعداً بحسب حسابه؟!

- إقناعه بأن معركته الكبرى هي مع الذات؛ مع قابليتها للانهزام والاستسلام، قبل أن تكون مع العدو الغاشم؟!

- إقناعه أن جهده- من أي نوع كان- لن يضيع سدى، فمعركته متعددة الأوجه: ثقافية، وإعلامية، واقتصادية، وسياسية، واجتماعية، قبل أن تكون عسكرية..

تاريخنا الحديث والمعاصر غني بالتجارب الناجحة على مختلف الأصعدة: اليابان، والصين، وماليزية، وتركية..

ولقد استطاعت المقاومة الواعية في فيتنام، ولبنان، أن تحقق انتصارات مشرفة..

فلنعزز ثقافة المقاومة، ولنثق بالدور الثقافي للمقاومة، ولنبحث عن الأساليب التي تحوِّل حياتنا العادية إلى مقاومةٍ؛ يسيرة الكلفة، كبيرة الجدوى، طويلة الأمد، عظيمة النكاية بالعدو.. تعيد إلينا ثقتنا بأنفسنا، وتعيد شبابنا إلى نطاق الفاعلية والتأثير.

الإنسانية الآن تعيش أحد أهم التحولات الكبرى في تاريخها؛ من عصر الصناعة المستمد من التراب إلى عصر المعرفة المستمد من الفكر.. والفكر هو الطاقة الكبرى التي أنعم بها الله تعالى على الإنسان، وميزه بها عن سائر المخلوقات..

فلنُعمل الفكر بحثاً عن مخرج!! عن عمل يرضي ضمائرنا نصرةً لأهلنا المعذبين الصابرين في غزة!! عن طرقٍ تظهر عظمة قيمنا وثقافتنا، وتفضح وحشية عدونا وتضليله وأكاذيبه.

ولنثق بالإنسان، أياً كان، فإن ضميره منجم غني بقيم العدل والخير، متى استطعنا أن نزيل عنها الركام والشوائب..

{بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ} [الأنبياء: ١٨/٢١] .

المقاومة؛ المنعطف الكبير

في تاريخ الصراع العربي الإسرائيلي[(١١)]

خيارا الحرب أوالمقاومة

عندما تتعرض أمة (أي أمة) لعدوان خارجي (أي عدوان)، فلسوف تعمد تلقائياً إلى مواجهته بجيشها النظامي الذي تقوده الدولة، ونجاحها يتوقف على مدى تفوقها في التسلح والتخطيط والمبادرة وقدراتها الذاتية على المباغتة وقوة الاحتمال.

فإذا أخفقت الدولة وجيشها النظامي في صد العُدوان، لم يبق أمام الأمة إلا أن تتولى بنفسها عبء الدفاع عن طريق المقاومة المسلحة التي تقودها الشعوب متجاوزة بها حكامها. وهو ما يعبر عنه في تراثنا الفقهي بفرض العين، الذي يصير واجباً على كل فرد (من أفراد الشعب) عندما يعجز فرض الكفاية (جيش الدولة) عن النهوض بعبء هذا الدفاع.

هشاشة النظام العربي

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وها نحن أولاء نرى في حالة الصراع العربي الإسرائيلي طويل الأمد، أن الأنظمة العربية الحاكمة قد أخفقت في تحقيق أي نصر عسكري أو سياسي؛ عن طريق الحرب أو عن طريق السلام، و لم تفلح في تحقيق الحد الأدنى من وحدة الكلمة ووحدة الصف اللذين يشكلان الشرط الأساسي للانتصار في المواجهة، فتشرذمت وتخلت عن قضيتها المحورية المشتركة (فلسطين)، وراح كل منها يتفرد باتخاذ المواقف، وغاب شعار التضامن العربي، وتعطل دور الجامعة العربية، وبلغت القمم العربية من الفشل الذريع حد السخرية في الداخل والخارج، وبلغ إحباط الشعوب العربية ذروته وهو يرى أعلام السفارات الإسرائيلية ترتفع في بعض عواصمها، وأيدي بعض قادتها تصافح اليد الملطخة بدماء إخوانهم وأبناء جلدتهم، قبل أن تجف أو يغسلها من العار، وتستمع إلى ألسنتهم تتجاوز حالة الصمت التي رانت عليها زمناً، لتجهر بخطاب العدو ذاته من دون خجل ولا تأثم.

هكذا نرى العدو قد نجح في ترويض الأنظمة العربية واحتوائها وإلحاقها به وعزلها وتعميق الهوة بينها وبين شعوبها إلا من عصم ربك.

الحرب المستحيلة

ومن دون التورط في توجيه اللوم أو الاتهام إلى الأنظمة العربية، فإننا ندرك تماماً أن النظام الدولي الجديد- نظام القطب الواحد بعد انتهاء الحرب الباردة- قد أخرج الأنظمة العربية وجيوشها من المعركة، وشل فاعليتها، وأحكم قبضته عليها؛ سياسياً من خلال هيمنته على الأمم المتحدة؛ المحكومة أصلاً (بديمقراطية حق الفيتو!!)، وعسكرياً من خلال إمساكه بزمام التسلح، وإعلانه عدم السماح للدول العربية مجتمعة أن تحقق تفوقاً تقنيّاً على إسرائيل.

لم تعد أمريكة (النظام الدولي الجديد) تشعر بأي حاجة لتغطية انحيازها الكامل للمشروع الصهيوني، وتضحيتها بكل القيم والمكتسبات التي أحرزتها الإنسانية عبر تجاربها المريرة، و لم تعد تشعر بأي حاجة للتستر وراء دور الوسيط المحايد، أو الصديق الناصح، بل اتخذت لها موقعاً متقدماً في الصف المعادي؛ تأمر وتنهى وتتدخل وتدعم العدوان، وتمارسه بشكل مباشر؛ مستغلة تفردها وتفوقها التقني، مصطنعةً الذرائع والمسوغات، مبتكرة نظرياتها عن صراع الحضارات والمطرقة الثقيلة والضربات الاستباقية، لتصول وتجول وتهدد وتزمجر، منكفئةً إلى ثقافة (الكاوبوي) التي ورثتها عن أجدادها.

و لم يعد أمام الأنظمة العربية إزاء هذا التفرد والاحتكار المنحاز، غير الإذعان والاستسلام.

فحين يكون عدوك مصدرك الوحيد للتسلح، فمن المنطقي أنه لن يبيعك السلاح الذي تقتله به، وإنما يبيعك السلاح الذي تقتل به جيرانك وأصدقاءك وأهلك، ثم تقتل به نفسك في نهاية المطاف. ولسوف يثير النزاعات الإقليمية والمحلية التي تستدعي استخدام هذه الأسلحة، ولسوف يشعر- حين يتكرم بالموافقة على إبرام صفقة سلاح معك- بسعادة غامرة؛ مرة لأنه تخلص من أسلحة تقليدية منسقة لديه، فات أوانها، كان يبحث عن مكان يدفنها فيه، ومرة ثانية لأنه قبض ثمنها مليارات يغذي بها مصانعه المنهمكة في إنتاج أسلحة متطورة؛ تضاعف من قدراته على إخضاعك وتليين عريكتك، وتزيد من هيبته لديك. ومرة ثالثة يقف فيها مقهقهاً وهو يرى فرائسه التي أغرى العداوة والبغضاء بينها، تقتتل وينهك بعضها بعضاً لتكفيه بعض مؤونة القتال.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ولقد كنتُ بين جمهور المفكر الجزائري مالك بن نبي، بُعَيْد النكسة، وهو يقدم في جامعة الخرطوم نظريته في أن «تكديس منتجات حضارة لا يبني حضارة، وإنما الحضارة هي التي تلد منتجاتها» حين ختم محاضرته بقوله: «لذلك فإن الأسلحة التي تكدست في أيدينا عام ١٩٦٧ أبت أن تطيع غير صانعيها».

فلئن كانت دولنا في مرحلتنا الحضارية الراهنة عاجزة عن إنتاج السلاح لجيوشها، فعلام تبدد ثرواتها في تكديس سلاح لا ينفع؟! هل بقي أمام شعوبنا إزاء هذا العجز إلا أن تمارس حقها في المقاومة؛ خيارها الوحيد دفاعاً عن الأرض والعرض؟!

المقاومة؛ الأمل والرهان

خياراتها أوسع من ضرورات الأنظمة؛ فلئن كانت الأنظمة مرتبطة بقوانينها ودساتيرها و(روتينها) وإمكاناتها في الداخل، وباتفاقياتها الدولية والتزاماتها تجاه الأسرة الدولية وقراراتها في الخارج، فإن المقاومة سيدة قرارها، ليست مرتبطة بغير عقيدتها ومبادئها وسندها الوطني في الداخل والخارج معاً.

ولئن كانت الأنظمة مرهونة فيما يتعلق بتسليح جيوشها وتحقيق التفوق التقني لها،لمصادر التسلح الاحتكارية الانتهازية المنحازة كلياً لعدوها. فإن سلاح المقاومة منبثق من ذاتها وإيمانها العميق بعدالة قضيتها؛ توفره بدءاً بالحجر الذي تلتقطه من بقايا بيتها المهدم، والبندقية التي تنتزعها من يد عدوها، والصاروخ الذي تصنعه في ورش الحدادة.

وشرعيتها مستمدة من القيم الإنسانية العليا، ومن حق الإنسان الطبيعي في الدفاع عن النفس، ومن الإذن الإلهي {لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا} ومن ثقتهم المطلقة بأن {اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ} [الحج: ٣٩/٢٢] .

المقاومة قلبت الموازين

فلم يكد النظام الدولي (القديم والجديد)؛ يطمئن إلى تثبيت أكذوبة «حق إسرائيل في الوجود»، التي فرضها عبر المنظمات الإرهابية الصهيونية (الهاغاناه، وشتيرن، والأراغون)، ومذابح التهجير التي نفذتها في دير ياسين وقبية ودير البلح، وقانا وصبرا وشاتيلا، وعبر قرارات الأمم المتحدة التي نجت من (الفيتو الأمريكي)، وما كان لها أن تنجو لو لم تكن منحازة للعدو الإسرائيلي محققة مصالحه وطموحاته، وعبر تهميش الشعوب وشل فاعليتها، واحتواء الأنظمة وتوفير الحماية لها، ثم استدراج الجميع إلى طاولة المفاوضات لوضع اللمسات الأخيرة على اتفاقيات التطبيع وسلام الإذعان.

لم يكد يطمئن لذلك، حتى فاجأته الانتفاضة تلو الانتفاضة لتكشف زيف دعوة التطبيع وخدعة سلام الإذعان للأمر الواقع، متشبثة بالأرض وبحق العودة.

ثم فاجأته عملية « الوعد الصادق »؛ لتسقط أسطورة الجيش الذي لا يهزم، ولتهز كيان المجتمع الإسرائيلي المتترس وراء قوته العسكرية الخارقة؛ تلزمه الملاجئ شهراً كاملاً، ولتربك أمريكة – ومن ورائها النظام الدولي برمته– التي عملت على منع مجلس الأمن من القيام بواجبه في إصدار قرار وقف إطلاق النار، في محاولة منها لإتاحة الفرصة تلو الفرصة لإسرائيل، لكي تتمكن من تحقيق نصر ما على الأرض يحفظ لها ماء الوجه، فلم تفلح، فبادرت لإنقاذها به من أطول حرب مذلة خاضتها في تاريخ عدوانها على العرب.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ولتظهر الشعوبُ قدرتها القصوى على الصبر والاحتمال.

ولتزرع البسمة والأمل في وجوه الشباب مؤكدة لهم صدق الوعد الإلهي {كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ} [البقرة: ٢/٢٤٩] ليكونوا آخر الأجيال المحبَطة، اللاهثة وراء سراب السلام الخادع.

ولتعري ديمقراطية إسرائيل التي ما فتئت منذ قيامها ترتكب أفظع المجازر وجرائم الحرب، وكل المحرمات الإنسانية، على مرأى ومسمع من المجتمع الدولي؛ تستهدف بها المدنيين داخل بيوتهم، أو تتصيدهم على جسر يعبرونه، أو ملجأ يلوذون به فراراً من القصف الأعمى، أو في سيارة إسعاف أو مستشفى يتوجهون إليه لتضميد جراحهم،ووقف نزيف دمائهم.. يرقب المجتمع الدولي المتحضر ذلك كله من دون أن تطرف له عين.

ولتؤكد للإنسانية أن النظام الدولي الجديد الذي تقوده أمريكة، قد أفقدها جل مكتسباتها التي أحرزتها من تجاربها المريرة عبر القرون. ولئن نجح في تزويد عصر المعرفة القادم بتقنية المعلومات بحكم تقدمه الصناعي، فإنه لم يفلح في التحرر من مفاهيم عصر الصناعة ومعاييره المادية، و لم ينجح في امتلاك البعد الإنساني الذي هو من أبرز سمات عصر المعرفة القادم لا محالة.

ولترغم العدو- أخيراً- على إعادة النظر في استراتيجياته وجميع حساباته.

فماذا بعدُ؟!

لسوف يستخدم العدو كل ذكائه الطبيعي والاصطناعي، من أجل:

- زعزعة الاستقرار الداخلي في الوطن العربي، وإثارة الفتن الطائفية والمذهبية والعرقية، لتمزيق وحدة الصف التي تجلت إبان المعركة.
- توسيع الشقة بين الحكومات والشعوب، وتأجيج أوهام التناقض بينهما، لممارسة مزيد من القمع، وتوجيه السلاح الرسمي (سلاح الحكومة)، والشعبي (سلاح المقاومة) نحو الداخل، وصرفه عن وجهته الحقيقية (عدوهما المشترك).
- الترويج لفكرة تسييس المقاومة ، وإلباسها الزي الرسمي، وإجلاسها على مقاعد الحكم، تمهيداً لاحتوائها وإلزامها بما لم تكن تلتزم به من اتفاقيات وقرارات دولية، أو غير دولية.
- والترويج كذلك لفكرة عسكرة المقاومة ، وضمها إلى الجيش النظامي، فالسلاح-بزعمها- لا ينبغي أن يكون إلا في يد الدولة، ليمكن احتواؤه، والسيطرة عليه، وتجريده من حرية القرار، وإخضاعه لموازين التسليح التي يهيمن عليها العدو الذي يقرر سلفاً صلاحيتها ووجهتها وشروط استخدامها.

ذلكم هو رهان العدو بعد المعركة.

وماذا عن المنعطف؟!

إنه لمنعطف كبير، في مستوى صراعنا الإقليمي:

- يتحول بشبابنا من حالة اليأس، وما تستتبعه من شعور بالإحباط والعجز عن فعل أي شيء، إلى حالة الأمل والثقة بالنفس وإمكانات الفعل الكثيرة المتاحة لنا بامتياز.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

- وتبدو فيه من بعيد ملامح عصر جديد تستلم فيه الشعوب المقود، ومفاتح التشغيل، مع حزام الأمان وسائر الوسائل الواقية من هزة المنعطف ومخاطر الصدمات.

- وينتهي عنده حلم إسرائيل الكبرى، وعصر النبوءات التوراتية المفعمة بالحقد والكراهية والتمييز والتعصب، ليبدأ عصر جديد تستعيد فيه الإنسانية رشدها وقيمها التي ضاعت في غمرة الصراع والتفرد؛ قيم الحق والخير والعدل والمساواة.

ومنعطف آخر في مستوى التداول الحضاري الإنساني:

- تبلغ فيه حضارة الغرب ذروة تقدمها التقني، الذي سخرته لخدمة آلة الحرب والتدمير والقتل والخراب، لتبدأ هبوطها التدريجي في هاوية انحدارها الأخلاقي غير المسبوق، تحف بها لعنات غوانتنامو وأبو غريب والفلوجة وقانا وجنين وغزة.

- ويبلغ فيه العرب والمسلمون حضيض تخلفهم الحضاري، ليبدؤوا الصعود منخرطين في دورة حضارية جديدة؛ تتوق الإنسانية إليها محتفظة لها في ذاكرتها بتجربة تاريخية فذة كان سداها {اقْرَأْ} [العلق: ٩٦/١] ولحمتها {وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا} [المائدة: ٥/٨] .

وعي المقاومة

لم يبق إلا أن تعي المقاومة رسالتها، وتشق طريقها مدركة وعورته وعوائقه، آخذة حِذرها من ألغامه المبثوثة لحرفها عن مسارها، وتحويلها عن أهدافها، وتغيير وجهة سلاحها.

ولتدرك المقاومة أنها لن تظفر بمباركة النظام الدولي لعملها، وأنها تخطئ كثيراً إن هي انتظرت إذن الدولة لها بالمقاومة، فتفقد بذلك هويتها وشخصيتها. فإنما هي حركة شعبية مرجعيتها الشعب، هو ملاذها الآمن. وعليها أن تحيط بثقافة المقاومة، وتستفيد من تجاربها، وعلى علمائها أن يقدحوا زناد أفكارهم لتنمية هذه الثقافة وللإبداع المتواصل فيها، والتغيير المستمر في الخطط والأساليب والأماكن والأزمنة؛ فلا يقتل المقاومة شيء كالرتابة والتكرار والاطمئنان.

وعليها كذلك أن تدرك أن المقاومة ليست بندقية فقط، وإنما هي علم وإعلام واقتصاد واجتماع ومعلومات، يجب أن تحيط بها جميعاً.

ولقد برهنت المقاومة في لبنان عن وعي لذلك كله، و لم يكن أداؤها الإعلامي أقل من أدائها العسكري.

وقامت قناة الجزيرة بدور فاعل مميز في تغطية الأحداث، وتسليط الضوء على خفاياها، وتوجيهها في خدمة الحقيقة؛ فلا يخدم الحقيقة ويجليها مثل الحوار وتعدد الآراء وعرض وجهات النظر المتباينة، وتقديم الصورة من زواياها المختلفة، وترك الحكم عليها للمشاهد، الذي سيكون قادراً على فرز الحق عن الباطل، وتنحية الزبَد والغثاء، وفقاً لقانون المخض (الإلهي): {كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ} [الرعد: ١٣/١٧] .

مشروع

الشرق الأوسط الكبير[(١٢)]

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

يستند واضعو مشروع (الشرق الأوسط الكبير) إلى تقريري الأمم المتحدة حول التنمية البشرية العربية لعامي ٢٠٠٢ و٢٠٠٣ اللذين أبرزا ملامح التخلف العربي في مجالات: الحرية، والمعرفة، وتمكين النساء..

ثلاثة أبعاد: سياسي، وثقافي، واجتماعي، أضافوا لها البعد الاقتصادي ليجعلوا منها مكونات الإرهاب والتطرف، ثم ليتخذوا الإرهاب والتطرف بدورهما ذريعة ليمطروا المنطقة بوابل من طلبات التحديث والإصلاح والتغيير العاجل.

فقد قرروا أنه كلما ازداد عدد المحرومين من حقوقهم السياسية والاقتصادية في منطقة؛ ازداد الإرهاب ، وتصاعدت الجريمة الدولية، والهجرة غير المشروعة. بذلك يكونون قد حددوا للإرهاب وجهاً واحداً هو الجريمة الدولية وما تستتبعه من هجرة غير مشروعة. كما حددوا مصلحتهم في المشروع، بوصفهم المتضررين الرئيسيين من الإرهاب الدولي.

أما النطاق الجغرافي للمشروع، فقد حددوه بالرقعة الممتدة من موريتانية في غرب إفريقية إلى باكستان في جنوب شرق آسية، ليشمل مجمل العالم العربي وتركية وإيران وباكستان وأفغانستان، إضافة إلى إسرائيل بالطبع، فهي قطب الرحى لكل ما يدور في المنطقة. ومن أجل ترسيخ أقدامها كمحتل، وتهيئة المنطقة لتتكيف معها جسماً غريباً مرفوضاً منها؛ تسوَّق كل المشاريع، وتسَنُّ القوانين، وتُلوَى أعناق القرارات الدولية، تمهيداً لتعطيلها فتجميدها، فرميها في محفوظات الأمم المتحدة، شديدة البرودة.

وأما أدوات المشروع لمعالجة النواقص التنموية، فقد حددت بثلاث هي بترتيب أولوياتها:

تشجيع الديمقراطية والحكم الصالح.

بناء مجتمع معرفي .

توسيع الفرص الاقتصادية .

وأما هوية المشروع فهي أميركية، تحاول أن تستدرج له مجموعة الدول الثماني ، وتورط فيه حلف الأطلسي.

ومع أني لا أومن بنظرية المؤامرة، التي تعلق كل مصيبة على مشجب الآخر، وتبرئ الذات من كل عيب وذنب. فإني لا أنكر وجودها، ولا أبرئ الآخر من المسؤولية عن حوكها، لكنني أرى في الوقت نفسه أن المشكلة في الذات، وأن مفتاح الحل عندها، فإن هي تحررت من تخلفها وعجزها وقابليتها للاستعمار، أسقطت ذرائع الاستعمار، وأزاحت الأقنعة عن وجهه وكشفت زيفه وتضليله.

{أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ} [آل عمران: ١٦٥/٣] . و{إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الرعد: ١١/١٣] .

وعلى ضوء هذه الرؤية، سأمضي في ورقتي محللاً بإيجاز ذرائع واضعي المشروع وأهدافهم البعيدة من جهة، ومبيناً مواطن الخلل وسبل الخروج من المأزق الحضاري الراهن للذات المستهدفة، من جهة أخرى.

ذرائع التدخل

ليست هذه هي المرة الأولى التي يتلمظ فيها الغرب لبسط نفوذه على المنطقة، بذريعة وهنها الحضاري وعجزها التنموي، فقد سبق له أن تقاسمها ضمن ما استولى عليه من تركة الرجل المريض مطلع القرن العشرين،

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

طبقاً لنـــزعاته الاستعمارية، التي ترعرعت في عصر الاكتشافات، ثم توطدت في القرن التاسع عشر؛ نظريةً تعتبر شعوب العالم المتخلف قاصرة وعاجزة عن إدارة شؤونها، وتنصِّب نفسها وصياً شرعياً عليها، وتقطعهـــا إربـــاً؛ ترسم لها حدوداً وهمية فيما بينها، تتلاءم مع التقسيمات التي وضعتها اتفاقيات توزُّع الكعكة، وأهمهـــا اتفاقيـــة سايكس بيكو.

وربما أمكن أن يتقبل القاصر الوصاية على سبيل المساعدة ريثما يبلغ رشده، تطوعاً لوجه الله تعالى، أو حـــتى مقابل أجر متعارف عليه.. لولا أن الوصي استباح كل أملاك القاصر؛ ينهب خيراته، ويأكـــل أموالـــه بـــالإثم والباطل، ويبالغ في قمعه وتأديبه كلما تجرأ على مطالبة بحق، أو دفع لظلم، أو مقاومة لعدوان..

لكن تدخله هذه المرة مختلف.. فهو يكاد لا يخفي حلمه الإمبراطوري الذي يسعى به إلى أمركة العالم تحـــت ستار العولمة.. ولا يخفي رغبته في بسط سيطرته على (الشرق الأوسط الكبير)؛ قلب العالم منذ بداية التاريخ حتى العصر الحاضر، وفي الاستئثار باستغلال مكامن النفط في أرضه؛ مصدر الطاقة الذي ما يزال الأول حتى اللحظة.

وهو لا يخفي كذلك تعصبه الديني، وحقده الدفين على الإسلام، فما إن أسفرت الحرب الباردة عن تفكـــك الاتحاد السوفييتي وغيابه، حتى اتخذ من الإسلام العدو البديل، وأعلنها على لسان بوش (اعتبرت زلة) حرباً صليبية جديدة، يعد خوضه لها استجابة لأوامر الرب، ويستخدم لها لأول مـــرة في تـــاريخ الدبلوماســـية الأميركيـــة المصطلحات الدينية كالخير والشر، في خطاب أحادي لا يختلف عن خطاب القاعدة المستند إلى ثنائيـــة الإيمـــان والكفر.

ولا أدل على ذلك الباعث الديني من الرقعة الجغرافية التي اختارها للمشروع، والتي تكاد تغطي مجمـــل دول العالم الإسلامي، لا يشذ عن انتمائه إلى الإسلام منها غير إسرائيل؛ التي تعد ذراعه الممتـــدة إلى المنطقـــة، ورأس حربته المغروسة فيها. وقد لحظت الخارجية الفرنسية ذلك حين ذكرت «أن الخيار الجغرافي الأميركي للمشروع، ليس له ما يفسره إلا المعيار الديني، الذي يوحي بوجود معسكرين: غربي مسيحي، وشرقي مسلم» ممـــا دفعهـــا للتحفظ إزاءه.

ثم إنه – بالدوافع الدينية ذاتها– ينسحب نهائياً من دور راعي السلام والوسيط المحايـــد في الصـــراع العـــربي الإسرائيلي، إلى دور المنحاز كلياً إلى إسرائيل، المسؤول عن أمنها، المتبني لأساطيرها المؤسسة، ونبوءاتها الدينيـــة لآخر الزمان، المسماة (خطة الله للدهر)، التي تروِّج لها جماعات المسيحية اليهودية ذات النفوذ القوي المتصاعد في أميركة.

وهو بحكم تبنيه للمشروع الصهيوني وخططه التوسعية، فإن هدف إدماج إسرائيل في المنطقة يقتضيه العمـــل على طمس هويتها وتغيير انتمائها، فلم تعد عناوين (الجامعة العربية) و(منظمة العالم الإسلامي) صالحة لاستيعاب الجسم الغريب فيها، ولا بد من صيغة جديدة: (شرق أوسط كبير)؛ تحيي مشروع بيريز (شرق أوسط جديـــد)، والمشروع الأوربي الأكثر ذكاءً (شراكة متوسطية).

وهو بحكم هيمنته الراهنة، ولتطويع المنطقة لمصالحه لم تعد الحدود الوهمية – المصطنعة في المنطقـــة، لتكـــون متسقة مع مصالح الاستعمار القديم– تقنعه، فيعلن عزمه على إعادة هيكلتها بما يخدم مصالحه.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ثم إنه – إصراراً منه على تحقيق أهدافه البعيدة من المشروع – يعلن أن الحرب على العراق إنما هي خطوة أولى في إطار توجه نبيل يشمل المنطقة بأسرها، ليقضمها تباعاً..

وربما كان أخطر ما في المشروع، وضعه موضع التنفيذ الفعلي، عن طريق علاقاته المميزة أحياناً، والضغوط الدبلوماسية والسياسية والاقتصادية أحياناً أخرى، مستفيداً من حالة الانفصام بين النظر والعمل السائدة في العالم العربي، فلا حرج أن تنشر وسائل الإعلام التصريحات المناهضة للمشروع، ما دامت بنوده قد وضعت موضع التنفيذ تباعاً: تعديلاً للمناهج التربوية، وتدريساً باللغة الإنجليزية، وإضعافاً للغة العربية ينحيها تدريجاً من التداول، وفق خطة زمنية مبرمجة، يُعبَث فيها بقواعدها، ويروَّج لعامياتها، تحت ستار التحديث والتبسيط والتيسير، وتُعدَّل الأجهزة الإدارية للجامعات والمؤسسات التعليمية، فيُعزَل مديرون مفتونون باللغة العربية، ليحل محلهم مهوسون بغيرها، وتغلق مراكز ثقافية برمتها، خوفاً من أن تبث ثقافة الإرهاب، وتُمنع جمعيات خيرية تعمل على رعاية الأيتام والمعوزين، خشية أن يخرج من بينهم مقتنع بهوس المقاومة والدفاع عن الأرض والعرض.

ولعل مما يستوقفنا عند المقارنة بين الاستعمار القديم والجديد، على استوائهما في رذيلة الاستعمار:

أن الاستعمار القديم كان أوربياً متعدد الأطراف، متنازع المصالح، في حين أن الجديد أمريكي متفرد يأبى الشراكة، ويستأثر بالغنائم.

وأنه كان أكثر تحفظاً وخجلاً إزاء تقاليد الشعوب المستعمرة وعاداتها، وأكثر احتراماً لمقدساتها، واحترازاً من المساس بأدياتها.

وأن القارة العجوز– كما دعتها أميركة– قد استفادت من تجاربها؛ وأدركت – بعد قرون من الحروب فيما بينها، كان آخرها حربان عالميتان أشعلتهما في القرن المنصرم– أن الحروب لا تحل المشكلات بقدر ما تعقدها، فاستطاعت بصبرها وإلحاحها على التفاوض خمسين عاماً أن تضمد جراحها، وتستأصل شأفة الكراهية والبغضاء من بين شعوبها، وتبني وحدتها على تعدد لغاتها، واختلاف مصالحها، فاختارت بذلك منعطفاً حاداً على طريق التقدم الإنساني، لفت أنظار العالم واستحق احترامه. في حين أن القارة البكر الغرة، المغرورة بتفوقها التقني والعسكري، اللاهثة وراء تحقيق أحلامها الإمبريالية، قد ضربت عرض الحائط بكل القيم والمبادئ، حتى التي وضعها مؤسسوها، وأفقدت الإنسانية مكتسباتها التي حصدتها خلال قرون كثيرة من التجارب المريرة والمعاناة، وانتهكت الاتفاقيات الدولية وحقوق الإنسان، وشغلت آلتها الإعلامية في حملة مسعورة تهدف إلى إفراغ قيم الحق والحرية والعدالة والمساواة من مضامينها عبر سلسلة من أعمال التعتيم والتضليل والتقزيم تَلبس الحق بالباطل، وتزين المنكر ليبدو كالمعروف، وتسفه المعروف ليبدو منكراً مستهجناً عند الناس.. حتى فقدت مصداقيتها فلم تُبق على أحد في العالم يفرح لفرحها أو يذرف الدمع عليها إن هي ألمت بها مصيبة.

هكذا تبدو أوربة سائرة في اتجاه التقدم الإنساني، لإحلال الحوار محل الصراع، في حين تسير أميركة بعكس الاتجاه، كأنها تريد أن تعود بالإنسان إلى الغاب، وهيهات، فالتاريخ الإنساني بمجمله قد يتعثر أحياناً، لكن سفينته لا ترجع إلى وراء.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

فلنستعرض معاً ذرائع المشروع، لنرى التزييف الواضح فيها، ولنبدأ بالإرهاب الذي هو ذريعة الذرائع والطامة الكبرى التي ينبغي أن يجند العالم كله لمكافحتها، خاصة بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، ومهاجمة برجي مركز التجارة العالمي.

لقد عدتها العبقرية الأميركية جريمة دولية راح ضحيتها آلاف الأبرياء، وإنها لكذلك، وإنما تقع مسؤوليتها على منفذيها، ولا تزر وزارة وزر أخرى، فلماذا يحمل الإسلام والمسلمون كل أوزارها؟!

ثم هداها البحث عن الأسباب الباعثة على الإرهاب، إلى أنها تكمن في الحرمان، فكلما ازداد عدد المحرومين من حقوقهم السياسية والاقتصادية ازداد الإرهاب وتصاعدت الجريمة الدولية فأي حرمان أشد من اقتلاع شعب من أرضه؛ والإمعان في تقتيله وتهجيره، وهدم منازله، وقلع أشجاره، وتدنيس مقدساته، وحرمان جرحاه من حق الإسعاف، ومرضاه من حق العلاج، وطلابه من حق العلم، وشبانه من حق العمل، ومهجَّريه من حق العودة؟!

وأي ظلم أشد من حرمان المعتدى عليه من حقه في الدفاع عن نفسه؟!

وأيهما أشد إيلاماً للضمير الإنساني وأجدر بالمكافحة؛ إرهاب المعتدي بما يملكه من تفوق في التقنية والعتاد، أم إرهاب المعتدى عليه المدافع عن نفسه وحقه وعرضه بما تطاله يده من أحجار بيته المهدَّم؟!

ولماذا يلام المظلوم الذي يئس من عدالة الأرض أن تنصفه، إذا قاد ظالمه أمامه ليمثلا معاً أمام محكمة السماء؟!

{أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ *} [الحج: ٣٩/٢٢] .

{} [الشورى: ٤١/٤٢-٤٢] ،

إن ما مارسته أميركة في أفغانستان، وما تمارسه الآن في العراق، وما تباركه من ممارسات إسرائيل، بآلتهما الطاحنة، ومطرقتهما الثقيلة، لهو من أفظع أنواع الإرهاب.

وما تدينه من أعمال المقاومة لهو من أقدس حقوق الإنسان، وأجدرها بالإشادة والتكريم.

وما على أميركة إذا أرادت أن تكافح الإرهاب، إلا أن تكف عن الظلم والكيل بمكيالين، فظلمها وعدوانها على الشعوب هو أكبر مصنع للإرهاب الدولي.

مواطن الخلل

أعود الآن إلى الذات المستهدفة من المشروع.

فوهنها الحضاري المزمن، وإخفاقها المتكرر في محاولاتها للنهوض، منذ إصلاحية محمد عبده وجمال الدين الأفغاني وعبد الرحمن الكواكبي وزملائهم التنويريين الأوائل، أغرى الآخر بالتدخل. ولا بد من تكرار المحاولة، والاستفادة من التجارب المتعثرة بعد تحليلها.

لقد كانت آمال النهوض التنموي الاقتصادي، واللحاق بالغرب أواسط القرن الماضي، ذروة عصر الاقتصاد الصناعي، شبه مستحيلة لتزايد اتساع الفجوة بسبب تفاوت السرعة بيننا وبينه.

أما وقد تحول العالم الآن إلى عصر اقتصاد المعرفة، الذي يعتمد على الأفكار مادةً أولية لصناعة المعلومات، والفكر – هبة الله للإنسان – موزع بين الشعوب بالتساوي، ليست أمة فيه هي أربى من أمة، فإن الشعوب كلها

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

باتت تقف على عتبة سباق واحدة، متمتعة بفرص متكافئة، يفوز فيها بقصب السبق من كان أكثر إعمالاً لفكره، وأكثر إبداعاً وعطاءً.

ولدينا تجارب تنموية معاصرة ناجحة، فأيرلندة التي قررت أن تنهض خلال عقدين من السنين، استطاعت بولوج بوابة التعليم أن تحقق حلمها، فصدّرت عام ٢٠٠٠ من البرمجيات ما يزيد على ستين بليون دولار منافسة بذلك أكثر البلدان تقدماً.

وماليزية بقيادة محاضير محمد، خططت لنهضتها خلال ربع قرن،فاستطاعت أن تحقق نهوضاً وحضوراً عالمياً مشهوداً أصبحت به في طليعة النمور الآسيوية، واستطاعت بالعلم والعمل الدؤوب أن تتجاوز الأفخاخ التي نصبت لها إبان الأزمة المالية المشهورة.

وعجز المنطقة عن تحقيق وحدتها على الصعيد العربي، مهّد الطريق أمام المشروع الصهيوني المدعوم من أميركة ليبلغ مداه، بل إن هذا العجز كان شرطاً من شروط تحقيق المشروع، ولا يحبطه إلا الخروج من حالة العجز في عالم ينزع إلى التكتل.

في كلمة المستشار الألماني شرويدر في حفل افتتاح معرض فرانكفورت للكتاب، قال: إن الاتحاد الأوربي كان قبل ستين عاماً كاليوتوبيا، وها هي ذي اليوتوبيا الآن حقيقة ماثلة لأعين العالم، بفضل الإرادة الصلبة لحل كل المشكلات على طاولة المفاوضات. ودعا العرب إلى الاقتداء بأوربة لتحقيق وحدتهم.

إن لدى العرب من عوامل الاتحاد أكثر مما لدى الأوربيين، ومن عوامل الفرقة والتنازع أقل مما لديهم.

ولديهم في تراثهم القاعدة الموسومة بالذهبية «نتفق فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه». وبموجب هذه القاعدة يمكن بناء الوحدة العربية لبنة لبنة، بالمسائل المتفق عليها وما أكثرها، واستبعاد المختلف فيه وتأجيله وما أقله.

إن الأمم التي تريد أن تنهض وتوحد جهودها، تبدأ بنقاط الاتفاق فتنميها، وتهمل نقاط الاختلاف فتنحيها. وتفعل العكس حين تريد أن تتخلف وتكبو.

إنه السبيل الوحيد أمام الأمة العربية لتخرج من ربقة تخلفها ومن خيوط المشاريع التي تحاك لها؛ أن تحقق وحدة فيما بينها، لا يخسر فيها أحد شيئاً، ويربح الجميع، يحتفظ كل بما لديه، ويضيف إليه ثمرات الاتحاد والتكتل.

أخيراً

لقد جرنا مشروع الشرق الأوسط الكبير من الإصلاح الذاتي الذي نملك كل مقوماته وأدواته، إلى الإصلاح الأميركي الذي لا هدف له إلا إدماج إسرائيل في المنطقة، لكيلا تبقى معزولة مرفوضة كجسم غريب.

وإن الرقعة الجغرافية المقترحة للمشروع، هي رقعتنا الإسلامية التي تملك كل مقومات الوحدة، من دون أن تفقد اسمها وهويتها وشخصيتها وقيمها.

ولديها منظمات إقليمية قائمة يمكن أن تتحرك من خلالها هي الجامعة العربية ومنظمة العالم الإسلامي. كما يمكنها أن تنشئ منظمات جديدة أكثر ألقاً وانسجاماً مع متطلبات العصر.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ما نحن أحوج إليه الآن، لمواجهة مشاريع الوصاية والتسلط الخارجي:

١- إثبات رشدنا، وأهليتنا الكاملة لإدارة شؤوننا، وكفايتنا للتخلص من عجزنا، وقدرتِنا الذاتية على النمو لمواكبة ركب التقدم البشري، والاندماج في المجتمع الدولي أنداداً لا تابعين.

فلئن كانت معادلة بيريز قد وضعت نفط الخليج، واليد العاملة المصرية، والمياه التركية في كفة مقابل العقول الإسرائيلية لبناء شرق أوسط جديد، فإن لدينا من ثقافتنا وقيمنا وفكرنا الإنساني المنفتح على كل الثقافات، ما يغنينا عن هيمنة العقول الإسرائيلية المتربصة بنا ومن ورائها الوصاية الأميركية، فمخزوننا الفكري أعظم من مخزوننا النفطي، لو أحسنا صقله، وإزالة ما ران عليه من الدرن، وما اعتراه من الصدأ لطول الأمد..

٢- أن نتعلم كيف نوظف ثروتنا الكبيرة من التعدد والاختلاف في خدمة نمونا وتقدمنا، فالعالم الإسلامي الذي ننتمي ثقافياً وحضارياً إليه، زاخر بالتنوع الكفيل بتنمية المواهب وتوليد الأفكار.. إن الأفكار كائنات حية لا تنمو إلا بالتعدد والتزاوج، وبارقة الحقيقة لا تنقدح إلا باحتكاك الأفكار المتباينة وتصادمها.

إن التنوع ثراء، والاختلاف في نظر القرآن نعمة امتن الله بها على عباده مثل خلق السماوات والأرض {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ} [الروم: ٢٢/٣٠] . والاختلاف كذلك هدف من أهداف الخلق {} [هود: ١١٨/١١-١١٩] .

ومن دونه تفسد الأرض والحياة: {وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ} [البقرة: ٢٥١/٢] و{لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا} [الحج: ٤٠/٢٢] .

ولا بد من توظيف الاختلاف في خدمة التقدم والتنمية، فالاختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية، والآخر ضرورة لنا يجب أن نبحث عنها كلما أفلتت منا، فهي مرآتنا التي تكشف لنا عيوبنا ونقائصنا.

ويجب أن نتعلَّم كيف نجتمع ونحن آحاد، وكيف نتوحد ونحن أفراد، وكيف نتفق ونحن مختلفون..

أما الديمقراطية، وإصلاح مناهج التعليم، وتمكين النساء، فكلها ذرائع واهية، ومشكلات يتجاوزها الزمن في عصر اقتصاد المعرفة، وثورة الاتصالات، وتفجر المعلومات، الذي حرر الإنسان من أسر الخطاب الواحد على طريقة {مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى} [غافر: ٢٩/٤٠] ، وفتح أمامه الآفاق، وعدّد مصادر الخطاب، ونوّع الخيارات.

فهل ثمة من يتحرك لطرح المشروع الذاتي الطموح، بديلاً عن المشاريع المطروحة التي تستهدف تغيير هويتنا، واستبدال شخصيتنا لخدمة المشروع الصهيوني، وتسويق وجوده السرطاني بيننا؟!

محرقة غزة

بداية تاريخ[(١٣)]

أيتها الشعوب المقهورة!! لئن عجزت صيحات الإدانة والاستنكار والشجب والاحتجاج التي أبَحَّت أصواتكم عن إيقاظ الضمير العالمي المتبلد، كي يصحو لإطفاء أشنع محرقة في التاريخ البشري، فلترفعوا أحذيتكم في وجوه سدنة النظام الدولي الجديد، وممثلي الأمم (المتحدة على الظلم)، ومحتكري حق الفيتو الذي منحوه لأنفسهم لإسكات صوت العدالة الإنسانية، وقادة الأنظمة المنسلخة من جلودها المتواطئة مع أعدائكم وأعدائها.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

إن أحذيتكم هي القلم الأنصع بياناً؛ لتكتبوا به الصفحة الأخيرة من تاريخ عصر الاستعمار والاستغلال والاستئثار والاستعباد والتدمير والتهجير والاستيطان؛ بكل رموزه من المحافظين القدامى والجدد..

ولتميطوا به اللثام عن وجهه المختبئ وراء أقنعة الديمقراطية والعدالة والحرية والمساواة، وحقوق الإنسان المتمحورة حول ذاته وأنانيته.. ولتكشفوا زيف حضارته التي يصدِّرها للعالم عبر أسلحة الدمار الشامل، والعدوان على البيئة والإنسان.

ولتطووا بها سجل ثقافة التمييز العنصري، وشعب الله المختار، وممارسته الإرهاب المنظم واستباحته الإبادة الجماعية للشعوب، تحت مظلة نظريات المطرقة الثقيلة، والضربات الاستباقية، وحرمانها من أبسط حقوق الإنسان في تقرير المصير، والدفاع عن النفس، ومقاومة الاحتلال.

يا شباب هذه الأمة المستهدفة في كرامتها وكبريائها! لا تهنوا ولا تستسلموا للعدوان الاستعماري الغاشم فإنما هي موجة عابرة لا تقوى على مجابهة قوانين التاريخ.. أحذيتكم أقوى من (أباتشي) العدو وصواريخه.. اركلوا بها أبواب سفارات العدو التي رفعت أعلامه في بلادكم، ومكاتبه التجارية التي تسللت إلى أسواقكم.. تقدموا بها إلى المعابر المصطنعة التي أحكموا إغلاقها ليشددوا الحصار على أهلكم في غزة لتفتحوها بعزيمتكم.. ثم امضوا بها إلى جدار الفصل العنصري لتهدموه كما هدم الشعب الألماني جدار برلين، وارموا بحجارته بعيداً على رؤوس بُناته لئلا يفكروا ببنائه من جديد..حتى إذا فرغتم من ذلك كله، عدتم أدراجكم لتخلعوا أحذيتكم وترموها في وجوه المتخاذلين والمتواطئين من بني جلدتكم الذين لوثوا أيديهم بمصافحة عدوكم، و لم يكتفوا بالصمت عن جرائمه، وإسكات أسلحتهم في مواجهته، حتى نطقوا بلسانه، وكانوا معه عليكم.

أما أنتم يا أهل غزة الصامدين الصابرين، فليهنكم أنكم فزتم بكتابة هذه الصفحة الأخيرة من تاريخ الاستعمار بدمائكم الزكية، ولتثقوا أن صمودكم سوف يلغي أسطورة التفوق الإسرائيلي، ويلوي خطه البياني الصاعد، ليكون هذا العامُ الأخيرَ الذي تحتفل به إسرائيل بستين عاماً على قيامها، وليبدأ به العرب عاماً يبعث في نفوس شبابهم الأمل بعد ستين عاماً من الهزائم العسكرية والنفسية المتلاحقة، وليبدؤوا به خطاً بيانياً صاعداً بقوة تؤهلهم لملء الفراغ الحضاري الإنساني الراهن. ولتكتبوا به – بأحرف من نورِ قيمكم ومبادئكم– صفحات تاريخ جديد..

الناشرون السوريون والعرب كلهم بانتظارها ليقدموها لأجيال الإنسانية القادمة بعنوان:

(الملحمة الفلسطينية، والانتصار الكبير).

التواطؤ الدولي على مجازر غزة[(١٤)]

الناشرون السوريون وهم يرقبُون المجزرة البشعة في غزة؛ التي يضيفها العدو الإسرائيلي إلى سجله الإجرامي الحافل بأبشع أنواع الإرهاب والقتل الجماعي منذ دير ياسين ودير البلح وقانا وصبرا وشاتيلا، لا يملكون إلا أن ينعوا إلى الإنسانية جمعاء:

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

- هيئة الأمم المتحدة والمجتمع الدولي وسائر منظماته الرسمية والأهلية التي راحت تسوِّي بين الجلاد والضحية، ووقفت تتفرج على المأساة لائذة بالصمت المطبق، ريثما يستكمل المجرم جريمته، مستفرداً بفريسته، بعد حصار طويل.

- المجتمع الإنساني الذي تبلدت أحاسيسه، وجمدت دماؤه في عروقه، ونسي كل مبادئ الحق والعدل وحقوق الإنسان.

- الأنظمة العربية والإسلامية المتواطئة، التي استبدلت بالمقاطعة وصلاً، وبالعداوة حباً، وبالإنكار توافقاً، وأسهمت مع المجرم في محاصرة الفريسة، لتيسر له الإمساك بها والتهامها.

إن اتحاد الناشرين السوريين، وهو يشير بأصبعه إلى المجرم الحقيقي، ليدعو المجتمع العربي، الذي يستعد للاحتفال بالقدس عاصمة للثقافة العربية لعام ٢٠٠٩ أن يدعو مفكريه لإنتاج ثقافةٍ بديلةٍ عن ثقافة الهزيمة والذل والانكسار والتواطؤ، تستطيع أن تعيد للأمة كرامتها.

ليكن الله في عون أهلنا في غزة، وليصبروا ويصابروا ويرابطوا، فالمستقبل لهم، ولا مستقبل لعدوهم، وسيعلم الظالمون ومن وراءهم أي منقلب ينقلبون.

الهوامش

[(١)] كتبت لمجلة زهرة المدائن في ٢٠٠٩/٣/٧.

[(٢)] من كتيب صادر عن الصليب الأحمر نقلاً عن كتاب «النوادر السلطانية» لبهاء الدين بن شداد.

[(٣)] كتبت في عنفوان ملحمة غزة بتاريخ ٢٠٠٩/١/١٢.

[(٤)] بحث كتب بناءً على طلب قناة الجزيرة في ٢٠٠٦/٩/١٠.

[(٥)] ألقي في ندوة خاصة أقيمت في دمشق بتاريخ ٢٠٠٤/١٢/٢٠.

[(٦)] بيان صدر يوم ٢٠٠٨/١٢/٢٩ باسم اتحاد الناشرين السوريين.

[(٧)] بيان صدر يوم ٢٠٠٨/١٢/٢٨ باسم اتحاد الناشرين السوريين.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com